

ماذا حدث..؟؟

من خارج الوطن وبعيداً عن ساحة الحوار ومنعاً للضرر والضرار أسأل الله أجراً لاجتهاد في توضيح الهام والصحيح فيما أغفله التصحيح و أحاول البحث فيما حدث عقب رحيل الدكتور جون قرنق...

لقد حدثت الفاجعة وكانت في توقيتها أبعد ما تكون عن خيال كل البشر المؤيدين والمعارضين للفقيد وبسرعة طوت كل تاريخ الحرب الأهلية في بضع ساعات .. حتى أن اذاعة الخبر- وقد تابعتها- أثارت في نفسى أسوء تكهنات رجل الشارع البسيط ناهيك عن ذلك المتحفظ والمشفق والناقد والجاهل والمتجاهل لحقائق الصراع .. وبدأت مخاوفي تزداد مع مرور الساعات بين مصدق ومكذب .. وزاد الطين بله ان أذيع نزول الطائرة بسلام وهو ما بدد الخوف وجدد وهم خيط الأمانى الذى يتعلق به كل مفجوع .. إذن حجم الرجل .. وسرعة الحدث .. وصناعة الخبر مع خلفية خريطة الخرطوم السكانية والتي كانت بؤرة توتر من خليط المجاهدين الذين يذهبون قوافل الى الجنوب ولا يعودون وأفواج العائدين الى الشمال ولا يرجعون وبينهم حواجز نفسية وعرقية وتاريخية فى الصراع السياسى الموروث الطويل.

وكان أكثرنا إما غافلاً أو زاهداً أو ناكراً لكل محاولة كالتى تجرى الآن لترميم العلاقات .. وبناء الصلات .. واستبدال زاد المجاهد بزاد المحبة و الثقة والألفة .. ومسح الكراهية والحقد وخير الزاد التقوى .. فأصبحت جذور عدم الثقة ضاربه فى أعماق الأرض خاصة فى الخرطوم التى تمثل عنق الزجاجة المليئة بالدم .. أو البركان الذى ينتظر الانفجار .. ولا أحد يتحسب له متى يحدث و إن كان على يقين أنه حادث لا محالة يوماً ما بصورة أو باخرى.. قنبلة موقوته تنتظر الضغط على الريموت كونترول و هذا بعض ما حدث.

وقد شاركنا جميعاً شماليين وجنوبيين فى تاجيح هذا الصراع أما بانكار وجوده أو تجاهل حدوده .. أو الاستخفاف بردوده و أخذنا على غرة.. فجاءنا ردالفعل أقوى من الفعل.

ثم كان هناك شبه فراغ دستورى بعد تنصيب الدكتور جون قرنق حيث تم حل الأجهزة التنفيذية فى الشمال والجنوب .. بصورة مستعجلة الطمأنينة أحدثت نوعاً من التراخى والتباطؤ فى نفوس المكلفين .. وكان أشبه بالتكليف المشروط .. لا يحيطه الحذر ولا يتجنب الغفلة خشية المساءلة.. ثم كانت هنالك الإجهادات الشخصية والرسومية على كل المستويات فى كيفية بناء الثقة فى اللحظات الأولى بعد التوقيع و مراسم التنصيب.. فكانت الحكومة تعتقد قانعة بان رفع حالة الطوارئ تعنى اللاعودة الى القهر باى صورة - وهذا طبيعى فى الظروف الطبيعية- ولكن القدر عاجلها بحالة غير طبيعية وهى منهكة بعد الخروج من ماراتون السلام .. لتدخل فى دوامة قيود جديدة .. فكانت متشحة بعباءة التسامح، فأعطت انطباعاً- و لو إلى حين- بأن كل ممنوع مباح للعاقل والجاهل .. ولم يصدق المغرضون على أنه من أدبيات فقه الضرورة .. وقد أحدثت صراعاً نفسياً أشد حدة وسط صناعات القرار الذين بدأوا يلتقطون أنفاسهم من اللهاث خلف سن القوانين المقيدة للحريات .. ومن حالة الكبت الى عالم الانفتاح .. وفى هذه اللحظة المفصلية تقع الكارثة فيختلط الحلم بالحقيقة ..ويقينى (أن رب ضارة نافعة) فقد انتفتت الشبهه عن المسؤولين أو اللوم للقيادة على أن لها ضلعاً فى الحادث أو معرفة ولو من طرف خفى به و إلا كانت وضعت نفسها فى قمة التاهب ويقينى لو تصدت الاجهزه الأمنية - وهذا لا يعفيها حتى الآن من التقصير ولو بالحد اليسير- .وكانت طرفاً فى وقوع ضحايا لانتشر العنف كالنار فى الهشيم متهما الحكومة بؤاد معالم الجريمة .. ولكنه كان فعلاً غير مسئول من موتورين .. متبطلين فى شوارع الخرطوم ينتظرون أى فرصة موأتية.. جمعهم مغرضون متربصون فى أزقة السياسية .. يتعطشون لمثل هذه السانحة .. ومما يؤسف

له إنهم استدرجوا بسطاء يفتقرون الى حسن النوايا .. و أبرياء مكلومين من أهل الضحايا فقاموا بالفعل المضاد والذي ايقظ الحكومة من احلام اليقظة .. وأشعل جذوة الشعور بالخطر .. وأطفأ نار الخوف من الاتهام .. وكانت هذه الفترة الزمنية القصيرة من أصعب اللحظات التي شهدت أكثر و أخطر الأحداث الدموية.

ولكن الهام والصحيح فيما أغفله التصحيح أن نتحدث عن الانتقال السلمى للسلطة و الأسلوب الحضارى لإتخاذ القرار داخل الحركة الشعبية .. وخروج قادتها ولأول مرة فى تاريخ السودان المعاصر .. وطوال اقامتهم فى الشمال خلال فترة الحرب الممتدة لعقود بحملات توعوية للتواصل والمؤاساة .. وكان ينبغى أن تتم من قبل وعلى نطاق كبير فى بناء جسور الثقة .. وتمكين روح السلام .. وكأنه قرار بأثر رجعى خرجت معه شريحة من أبناء الجنوب على مستوى عال من الثقافة وقدر كبير من الحس الوطنى .. قاموا بمبادرات اضعاف ما قام بها غيرهم من المتضررين.

إن سيكولوجية الإشاعة تتكون من عدة عوامل أهمها وجود شئ من الحقيقة و قدر من الغموض و نوع من الدافعية تتجه بالمحتوى سلبا أو إيجابا و قد توفرت كل هذه العناصر على خلفية مشحونة مخنوقة بالإحتقان.

ان العنف يبدأ من نقطة معينة وقد ينتهى فى نقطة لا يعلم مداها إلا الله و لاعلاقة لها بمصدر العنف وسببه وجذوره .. وهذه خطورته فهو كالمرجل الذى يغلى وتتصهر فيه المشاعر الخبيثة والحميدة وينبعث منه لهب حارق يذيب عقل الفرد فى غوغائية الجماعة مهما أوتى الفرد من الحكمة .. ومن أوتى الحكمة فقد أوتى شئيا كثيرا. و قد كتبت حول هذه الرؤية النفسية للعنف بالتفصيل فى كتاب (مدخل الى الطب النفسى)، فصل (سيكولوجية العنف والعدوان)، ص: 375 ، الطبعة الاولى 1986.

وقد كان كثرة من ابناء الجنوب على قدر كبير من الحكمة و نفاذ البصيرة و عمق الرؤية بحيث احتوت الحركة الشعبية كل مشاعر الغضب فى الشمال والجنوب .. وتصرفت بمسئولية تؤكد "أن المصائب تجمعن المصابين".

لقد قال وزير الأشغال المكلف الدكتور جوزيف ملوال فى أول اجتماع للدكتور الراحل جونق قرنق بمجلس الوزراء فى الاجتماع التتويرى محذر من حدوث مأساة الأحد المشئوم فى ثورة اكتوبر 1964م، عندما تأخرت طائرة السيد/ كلمنت أمبورو وزير الداخلية فى حكومة أكتوبر عائدا من الجنوب. .. وقد ذكر أعضاء المجلس قائلا بالحرف الواحد: ان فردا واحدا غير مسئول من الشارع و فى الشارع يمكن ان يخرب كل عملية السلام. .. وصدق الرجل .. ولم تمض أيام بعد الاجتماع حتى حدث ما حدث ولم تكن نبؤة ولكنه بعد نظر واستقراء للاحداث و لم تحدث معالجة سياسية مسئولة آنذاك وقد كانت كفتنا مؤونة ما يجرى الآن .. وتتعدد الأسباب والموت واحد .. وقطعا لم يكن أحد يتوقع وفاة جون قرنق آنذاك. ولكن كان كلنا يعلم أن الظروف الموضوعية مواتية لحدوث ما حدث .. وكنت اتفق معه وأرى رؤيته .. و لكن رغم حزنى الفاجع على ما حدث إلا أننى أقول (وعسى ان تكرر هو شئيا وهو خير لكم) .. و من حذر كمن بشر ك.

لقد كان متوقعا أن يحدث هذا لفك الإحتقان الموروث والمكتسب وإمتصاص نغمة الكراهية الظاهرة والمستترة ونزع فتيل أزمة الثقة .. بفتح بوابة جديدة .. أو فكرة مبتكرة أو مبادرة حميدة تفتح الباب لكيفية التواصل بين الشرائح السياسية .. والمنظمات الطوعية .. والإدارات الأهلية والإتحادات النقابية و الهيئات الشبابية لتشارك فى صنع السلام .. وقد شاركت بقدر كبير عندما امتلكت زمام المبادرة يسندها فهم الحقيقة .. وحسن النوايا .. و ما

كنا نحتمل هذا بعد سنوات من الآن ولن يفكر عاقل فى تكراره بعد اليوم. فإذا كانت الدماء التى سالت فى الجنوب مهرا للسلام فإن الدماء التى سالت فى الشمال ضريبة للوحدة..و كفى.

ولكن علينا دائما ألا ننسى الأيادى الخارجية .. تحت مظلة الشرعية الدولية .. والمجتمع الدولى الذى يراقب ويحاسب .. ولا يحسب حسابا لأحد .. فلكل أجدته الخاصة به .. وحتى تكون لنا أجندة وطنية خالصة خاصة بنا.. فليكن هذا الدرس عظة وعبرة .. فالقانون يعلو على البشر .. والوطن يعلو على الجميع .. وهذا هو الهام والصحيح فيما أغفلة التصحيح.

ولنا عودة بأذن الله

دكتور الزين عباس عمارة - أبوظبى